سفر خالد بن الوليد

من العراق الى الشام

— ٤ —

المفازة :

ومن الطبيعي ألا تشير الروايات الى المراحل بين قراقر وسوى لأن الأرض بينهما مفازة ، لا ماء فيها ولا سكن ، وهي غير مستطرقة . وفي رواية للسمرقندي نقلها ابن عساكر ، اسماء بعض المراحل بين قراقر وسوى . ذكرها موسل في كتابه[1] . وجاءت هذه الرواية مضطربة ترجمتها كما يلي :

« سار خالد من قراقر الى (سوطه) فجعل المشرق عن يمينه ومر بـ (الذن) ونزل في (فرقين) . ثم في (الحصد) ، ثم في (العرير) ، ثم في (سوعيل) . قال : ونزل سيف بن عبد الله بن محضر عمن حدثه » . هذا نص رواية عبد الله بن محضر وهي مرتبكة ، لم نعثر على هذه الرواية في أجزاء ابن عساكر المطبوعة . لهذا كتبنا الى الأستاذ شكري فيصل نرجوه نقل الرواية المذكورة من النسخ الخطية المحفوظة في خزائن القاهرة فتفضل وأرسل الينا الرواية المذكورة أخذاً من نسخة خزانة طوبقبو في استانبول ، وهذا نصها :

« فأخذ (خالد) من قراقر الى (شرطه) فجعل المشرق عن يمينه واستقبل الصبا فنزل (قريتين) ثم نزل (الحقار) ، ثم نزل (العرير) ثم نزل سُرا سلسل .. » .

---

(١) بادية العرب ، (ص ٥٥٩) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولما وصلتنا المجلدة الأولى من تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر بتحقيق الأستاذ صلاح الدين المنجد وجدنا الرواية المذكورة في الصفحة (٤٦٥) كما يلي :

« أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي . . . . . عن ظفر بن دهي بمثله . وقال فأخذ من قراقر الى سوكه فجعل المشرق عن يمينه واستقبل الصبا فنزل قريتين ثم نزل الحقار ثم نزل العرير ثم نزل سوى بليل . قال : ونا سيف عن عبد الله بن مُحَضَّر بن ثعلبة عمن حدثه » .

فالفرق بين الرواية التي نقلها موسل والرواية الآنفة الذكر كما يلي : أما (شرطه) او (سوكه) فينبغي أن تكون (سوى) حرفها النساخ خطأً . والمنزل الأول في رواية موسل (أَلْذن) ولم يرد ذكر هذا المنزل في الرواية المذكورة في المجلدة الأولى . والمنزل الثاني في رواية موسل (فرقين) ، بينما ورد في رواية المجلدة الأولى (قريتين) . والمنزل الثالث في رواية موسل (حصد) ، بينما ورد في رواية المجلدة الأولى (الحقار) . والمنزل الرابع في رواية موسل (العِرِر) وفي رواية المجلدة الأولى (العرير) . انتقد موسل تلك الرواية وأشار الى أن فيها تقديماً وتأخيراً ، والأعلام الواردة فيها أماكن مرَّ بها خالد قبلاً وقال ان فرقين ينبغي أن تكون محرفة من قرقيسيا والحصد محرفة من الحصيد ، أما سوعبل وفي رواية المجلدة الأولى (سوى بليل) فهي مزج آخر جملة بأول جملة ، لأن الخبر أتى كما يلي : ثم سوعبل قال ونزل ، لهذا ينبغي أن يكون الخبر قال ونزل بسوى ، فتصبح الرواية كما يلي :

« قال عبد الله بن محضر عمن حدثه أخذ خالد من قراقر الى سوى ، فجعل المشرق عن يمينه ومر بألذن ونزل في فرقين ، ثم في الحصيد ، قال ونزل بسوى » .

ولعل (فرقين) هي القريتين كما جاء في رواية المجلدة الأولى ، ولعل (الحقار) تحريف النساخ لكلمة الحصيد . أما العرير فلم نتثبت من محلها ولعل النساخ حرَّفوها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد ذكرت الروايات ان خالداً اجتاز المفازة في خمس ليال وذكر اليعقوبي في ثمانية أيام ؛ والقصد من خمس ليال ست مراحل لا كما قال بعض المؤرخين بأنها خمس مراحل . قضى خالد في المفازة خمس ليال ووصل في اليوم السادس الى سوى . أما الثمانية أيام التي ذكرها اليعقوبي فستة أيام منها في قطع المفازة واليومان الأخيران بين سوى ومرج راهط ، والمسافة بينهما مائة وخمسة وعشرون كيلومتراً أي مرحلتان . وبما أن المسافة بين قراقر وسوى نحو من ثلثمائة كيلومتر، فانها تقطع في ستة أيام خفاف .

ذكر الشيخ عبد العزيز العقيلي الذي اجتاز مفازة قراقر وسوى مرات ان المسافر يقطعها في ست مراحل خفاف . المنزل الأول (أذنه) ، ورد اسمها في خريطة موسل (ام اذن) الى شمالي شرقي قراقر على بعد ثلاثين كيلومتراً ولعلها (أل ذن) الذي ورد ذكرها في رواية السمرقندي الآنفة الذكر . وصفها الشيخ عبد العزيز انها حجارة سوداء تؤلف تلاً في سهل ، أي الحمم التي أشار اليها موسل . والمنزل الثاني في أرض دُقرة بين تلي (أبي راسين) و (الأقرن) وبين (كثب الشامة) وهي كثبان رمال وقد جاء اسم (كثب الشامة) هذه في خريطة موسل ؛ والمسافة بينها وبين أم اذن ثلاثون كيلومتراً والأرض الدقرة التي أشار اليها عبد العزيز هي الأرض البركانية ، ذكرها موسل قائلاً : « يجب على المسافر أن يتوجه من قراقر في أول مرحلة الى الشمالي الغربي ويقطع أرضاً بركانية طولها خمسون كيلومتراً لهذا ينبغي أن تكون (كثب الشامة) المنزل الأول . والمنزل الثالث كما ذكره هو (تل الهبر) ووصفه بأنه تل أسود على الحدود الأردنية — السعودية من غربه . وقد جاء اسمه في خريطة موسل والمسافة بينه وبين كثب الشامة خمسة وعشرون كيلومتراً . والمنزل الرابع حسبما ذكره العقيلي قاع (ابو الحصين) في غربه الحرّة وفي شرقه (وديان الرويشدات) . سجل موسل في خريطته على غربي الطريق شعيب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(رُوَيشد ابو حفنة) وهو على بعد خمسة وسبعين كيلومتراً وفي جوارها مقور مياه تسمى (الخويمات) تكون في أرض بيضاء . والخويمات هذه واقعة الى جنوبي (شعيب حفنة) على عشرين كيلومتراً . والمنزل الخامس (الحدالي) وهي عبارة عن قارتين صحراويين ويرى جبل الغراب في الغرب من بعيد ، وجاء اسمه في خريطة موصل (غراب الحدالي) وهو جبل أسود الى غربي الطريق بعد عطفته الى الشمال الغربي . أما المنزل السادس فهو سبع أبيار . وطولها من الحدالي سبعون كيلومتراً . وفي خريطة موصل محل على الطريق في المكان الذي ينعطف فيه الطريق الى الشمال الشرقي نحو سبع أبيار يسمى (الجويف) ومنه يتشعب طريق الى (خان عنيب) الواقع على طريق (تدمر — دمشق) .

متى سافر خالد من العراق ؟

ثبتنا الطريق التي سار فيها خالد برجاله ، نعود فنبحث عن الوقت الذي سافر فيه :

ذكرنا فيما سلف أن خالداً تسلم أمر ابي بكر في أواخر المحرم سنة ثلاث عشرة وأشرنا الى أن أوثق الروايات تؤكد بأنه أغار على الغسانيين في مرج راهط في عيد فصحهم أي في ٢٤ ـ نيسان ـ سنة ٦٢٤ . ولا بد أن خالداً قضى بضعة أيام في انتقاء رجاله وارساله النساء والضعفاء الى المدينة والاستعداد للسفر ، لهذا يصادف مغادرته للحيرة في أوائل شهر صفر أي في منتصف شهر آذار .

فقد روى المدائني انه غادر العراق في ربيع الثاني سنة ثلاث عشرة ، ويصادف يوم ٢٤ ـ نيسان ـ ٦٢٤ = ١٩ شهر ربيع الأول سنة ١٣ . وهذا التاريخ ثبت . اذن ما معنى ربيع الثاني الذي ذكره المدائني وأيده البلاذري ؟ لأن تاريخ وقوع معركة أجنادين الذي أيده أكثر ثقاة الرواة والاخباريين يعارض التاريخ الذي ذكره المدائني . وقعت معركة اجنادين في ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٣ هـ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والطريق الذي سلكه خالد لا يمكن أن يقطعه في أقل من خمسة وعشرين يوماً . وقد قضى عدة أيام للوصول الى بصرى بعد ضربة الفسانيين في مرج راهط وفتحه مدينة بصرى ، ثم توجه الى الجنوب للانضمام الى جند عمرو بن العاص . والمسافة من بصرى الى الغمر الذى قيل ان عمرو بن العاص كان يرابط فيه لا تقل عن ثلثمائة وخمسين كيلومتراً ، ومن الغمر الى أجنادين نحو من مائة كيلومتر . ولا شك أنه صادف في طريقه عقبات أخرته عن المسير ، والمعقول أن لا يتم كل ذلك في شهر واحد .. ومن أجل ذلك ليس لنا الا أن نؤيد ما أورده موسل من أن الربيع الآخر الذي أشار اليه المدائني هو موسم الربيع لا الشهر القمري . وذكر موسل ان كيتاني أخطأ حين اعتبر تاريخ المدائني أساساً للبحث ، ويذهب موسل الى أن موسم الربيع عند البدو يقسم الى شطرين ، والمدائني أراد بربيعه الثاني أن يشير الى الشطر الثاني من موسم الربيع ، أي أن سفر خالد من الحيرة حتى وصوله مرج راهط وقع على ما يظهر في الشطر الأول وقسم من الشطر الثاني لموسم الربيع . وما برح البدو يسمون الخريف بصفر الأصفار . وذكر موسل أنه يمتد ثلاثة أشهر أي ايلول وتشرين الأول وتشرين الثاني . ولعل شهر صفر الذي ذكره سيف بن عمر في رواياته عن فتوح خالد في العراق هو صفر الأصفار لأنه حشد في شهر صفر هذا كثيراً من الحوادث التي لا يمكن أن تجري في شهر واحد .

اذن فلنا أن نعتبر سفر خالد من الشام قد جرى في النصف الأخير من شهر آذار سنة ٦٢٤ وانه قضى في الطريق أكثر من شهر ، لأنه لم يجهد خيله ورجاله في الطريق صيانة لهم واستعداداً للقتال في الشام ، فرتب مسيره بأن قطع في اليوم خمسين كيلومتراً ، وقضى عشرين يوماً بين الحيرة ودومة الجندل وخمسة أيام بين دومة الجندل وقراقر ، وستة أيام بين قراقر وسوى ، ويومين بين سوى ومرج راهط ، يضاف الى ذلك يوم أو يومان قضاهما في سوى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأطرافه ، وبذلك يكون قد قضى نحواً من خمسة وثلاثين يوماً في سفره ، ترك الحيرة حوالي ٢٠ آذار ووصل مرج راهط في ٢٤ نيسان .

خالد في سوى :

لم يعثر خالد على الماء في سوى بسهولة . والروايات جميعها تشير الى أن موقف خالد في سوى كان حرجاً . لقد نفد الماء بنحر الجزور ، وليس هناك ما يدل على أن الماء موجود في سوى . ومما زاد في حراجة الموقف رمد الدليل رافع الطائي وهو على ما ذكرته الرواية كان ورد ماء سوى قبل ثلاثين سنة وهو غلام وبعد أن ضرب الناس يمنةً ويسرة عملاً باشارة رافع عثروا على جذع الموسجة . فاحتفروا الأرض بجوارهـا ووجدوا الماء وارتووا . قال موسل : « ان آبار سبع أبيار (وهي سوى) في منتهى شعيب ضحل . تحتفظ بالماء ثلاث أو أربع سنوات عقبى أمطار غزيرة في الشتاء ، وأرباب الرحلات لا يعتمدون عليها الا فيما ندر ، ولا يمرون بها الا قليلاً ويتركونها ، وتكاد الرمال تطمرها »[1] . ثم أضاف قائلاً ان رافعاً من قبيلة طي وبلاد طي واقعة الى جنوبي سوى على مئات من الكيلومترات ولعلهم كانوا وما يزالون يطلبون سوى في غزواتهم ، لذلك ان خبر جذع الموسجة خبر صحيح . ومن الروايات ما أشارت الى ان خالداً باغت جمعاً من بهراء في سوى ، كانوا يشربون ومغنيهم ينشد الأبيات التالية :

ألا عللاني قبل جيش أبي بكر لعل منايانا قريب ولا ندري

فقتلهم وسبى . وفي روايات أخرى أن الحادث المذكور وقع في المُصيخ قبل سفر خالد من العراق . وفي رواية الهيثم بن عدي أن الحادثة وقعت في البشر . ومن الروايات ما تجعل الوقعة في مصيخ بهراء في أطراف سوى . والبيت يدل على ان الحادثة وقعت في المصيخ شمالي عين التمر ، قبل سفر خالد لأن المغني

(١) البادية العربية : (ص ٥٥٨) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كان يجهل قدوم جيش خالد من قراقر ، وقد احتاط خالد في اجتيازه المفازة ليباغت الشام ؛ فضلاً عن أنه يصعب تصديق رواية وجود جمع بهراء في سوى . وقد اتضح أن المسلمين حفروا الأرض واستخرجوا الماء منها . ولا يستبعد ان خالداً بعد وصوله الى سوى وأثناء اقامته فيها أرسل رجالاً من أصحابه ليغيروا على الأطراف ويحصلوا على الطعام . فأغار هؤلاء على جمع من بهراء في أطراف سوى .

واذا كان خالد عازماً على مباغتة الروم في دخوله ارض الشام وجب عليه ألا يطيل المقام في سوى ولا يضيع وقته في شن الغارات ، كما أشارت اليه بعض الروايات ، لأن في ذلك مضيعة للوقت ، واطلاع العدو على محله . لهذا من المحتمل جداً أنه قضى مدة قصيرة في سوى للراحة ، ولم يكشف عن محله ، فتوجه الى الشام من الطريق الأقصر وهو الذي يمر بضمير وينتهي بعذراء . ولا سبيل له أن ينفذ الى الشام من محل آخر . وسبب ذلك ان سلسلة رواق تسد الطريق من الشمال وحرة تلول الاعطيات من الجنوب وبحيرة عتبة وبحيرة الهيجانة من الغرب والأرض بين البحيرتين المذكورتين في الربيع كثيرة المستنقعات يصعب اجتيازها . ويبدو من ذلك أنه ليس لخالد الا أن يتوجه من سوى رأساً الى عذراء ويباغت من فيها والمسافة بينهما مائة وعشرون كيلومتراً ، أي مرحلتان . ويظهر من الروايات أن المياه كانت متوفرة في الطريق المذكور . وقد ذكر ابن اسحق في روايته أن الطريق استقامت بخالد بعد سوى . وتواصلت المياه حتى مرج راهط .

وجاء في رواية لسيف بن عمر ما يلي :

« ولما بلغ غسان خروج خالد على سوى وانتسافها وغارته على مصيخ بهراء وانتسافها ، فاجتمعوا بمرج راهط . وبلغ ذلك خالداً وقد خلف ثغور الروم وجنودها مما يلي العراق فصار بينهم وبين اليرموك صمد اليهم . فخرج من سوى بعدما رجع اليها بسبي بهراء فنزل الرمانتين علمين على الطريق ، ثم نزل بالكثب حتى صار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الى دمشق ، ثم مرج الصفر ، فلقي عليه غسان وعليهم الحارث بن الأيهم ، فانتسف عسكرهم وعيالاتهم ونزل بالمرج أياماً ، ثم خرج منه حتى ينزل بقناة بصرى ، فكانت أول مدينة افتتحت بالشام على يدي خالد فيمن معه من جنود العراق . وخرج منها فوافى المسلمين بالواقوصة فنازلهم بها في تسعة آلاف .. »[1] .

ورواية سيف هذه هي الرواية الوحيدة التي تشرح قصة سير خالد من سوى الى مرج راهط ، وتشير الى ان الغسانيين استخبروا وصول خالد الى سوى . أما ما جاء فيها من اغارة خالد على مضيخ بهراء ـ والصحيح (المصيخ) ـ فخبر يشير الى اغارة خالد على بني تغلب في المصيخ حينما قدم اليها من عين التمر وذلك قبل سيره الى الفراض ، أي قبل استلامه كتاب ابي بكر . والمصيخ هذا كما بينا يقع الى جنوبي وادى حوران وقد ثبته موسل في عين الأرنب . لهذا لا يعقل أن خالداً بعد وصوله الى سوى وقد وصل حدود الشام يشرق ويجتاز البادية مرة أخرى ويذهب الى المصيخ للاغارة على أهله . والمسافة بين سوى والمصيخ نحو من أربعمائة وخمسين كيلومتراً والماء مفقود في الطريق وقد يقضي في الذهاب والاياب أكثر من عشرة أيام .. الا اذا كان هناك مصيخ آخر في جوار سوى ، يرجع لبهراء . وقد يكون المصيخ وصفاً لبعض أشكال الأرض كالكثيب والقلت والثنى أو الثنية وغير ذلك[2] .

وقد أشرنا قبلاً أن مبدأ المباغتة يتطلب من خالد ألاّ يقدم على حركات عسكرية بعد وصوله سوى ، وليس من شك في أنه قضى بعض الوقت للاستراحة بعد السفر الشاق في المفازة ولا يستبعد أن بعض رجاله قاموا بغزوات قصيرة المدى في الأطراف لاغتنام بعض المواشي ، لأن الموسم في أطراف الشام موسم المرعى .

(١) الطبري ، الجزء الثاني ص (٦٠٤) .

(٢) وجاء في القاموس (الصخ) الضرب بالحديد على الحديد . وصوت الحجر اذا قرع وقد يكون المصيخ الأرض الحجرية التي تقرع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ليس في الروايات ما يشير الى أعمال خالد بين سوى ومرج راهط . ورواية سيف على طولها لم تشر الى عمل له سوى نزوله بالرمانتين والكثيب . والرمانتان اشارة الى تلين منفردين ، ارتفعا في ارضٍ سهلة وأصبحا علماً لمكان وقد ذكرهما الشيخ عبد العزيز العقيلي . والكثب والكثيب تل من الرمل . ولعل خالداً كان يعلم أن الطريق بين تدمر ودمشق غاصة بالحصون ومعاقل الروم ؛ لهذا لم يخاطر في مهاجمتها ، ولعله سعى كثيراً لأن يسلك طريقاً بعيدة عنها ليخفي حركته وبالحقيقة ان المنفذ الشمالي لبلاد الشام يسهل كثيراً سده بوجه القوات القادمة من البادية ، وهو محصور بين سلسلة الرواق والحرة الواقعة الى شرقي دمشق وبحيرتي العتيبة والهيجانة وما يتخللها من المناقع ومن أجل هذا يذهب الظن الى أن خالداً ، في زحفه من سوى الى مرج راهط اتخذ كل الحيطة لاخفاء مسيره محاولاً مباغتة الغسانيين ؛ واذا صحت رواية سيف فانه علم باجتماع الغسانيين في مرج راهط ، لأنه كان قد اعتزم الوصول الى المسلمين من دون ان يحبسه الروم عن نجدتهم .

وفي الخريطة التي أرفقها (بواديرارد) بكتابه (المواقع الرومانية في بادية الشام) حصون ومعاقل على طريق (تدمر — دمشق) من صبع ابيار الى ضمير وذكر المؤلف[1] أنه أقيم خط أمامي ليستر طريق الخانات (الطريق الشمالي التي تمر بسفح سلسلة الرواق بين دمشق وتدمر) جنوبي جبل الرواق على ثلاثين كيلومتراً ، ليسد الجادة الممتدة من الحماد بالاتجاه الشمالي الغربي . ويتألف هذا الخط الأمامي من الطريق المستحكمة لجادة ديوقليتيان في قاطعيه جبل سَيْس ـ صبع أبيار ـ تدمر . وفي هذا الخط حصن (تل الساعي) الواقع الى جنوبي غربي صبع أبيار على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً . ويمكن الوصول الى صبع أبيار مباشرة من ضمير وخان الشامات من دون المرور بسَيس . ويتبين مما كتبه المؤلف

(١) المواقع الرومانية في بادية الشام (ص ٤٢) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أن جبل سَيْس يقع على الطريق الروماني الأقصر بين بصرى وتدمر وقد استعمله أرباب الرحلات من التجار يوم كانت بصرى وتدمر مدينتين تجاريتين خطيرتين . وفي نقطة جبل سيس بئر وحصن لحراسة البئر . وبين هذا الموقع وموقع سبع أبيار مواقع أخرى فيها تل صناعي وبرج روماني وبركة من العهد الروماني واسم الموقع تل (سَدْشِه) ، ويمر الطريق بعدها بتل التساعي الى سبع أبيار ومنه الى حصن العليانية وحصن الملكية ، ثم يضرب شمالاً الى تدمر .

أما الطريق الأقصر من سبع أبيار الى ضمير فيمر بسفح جبل رواق الجنوبي وفيه أيضاً معاقل وحصون كحصن سَيْجل وحصن خان الشامات وحصن ضمير . وفي أطراف ضمير أقيم سور لحماية أرض المرعى . لقد درس المؤلف هذه المواقع وثبت صورها ورسومها في ملحق كتابه وأثبتها في خريطة المواقع الرومانية في بادية الشام .

ذكر موسل في كتابه « البادية العربية » أن في شرقي مرج راهط (في جوار عذراء) معسكر الرومانيين المستحكم ، الواسع (ضمير العتيقة) . . لم تشر الروايات العربية اليها ولعلها كانت وقتئذٍ خالية أو لعل حاميتها انضمت الى جيش الروم للدفاع عن الباب الأول في بصرى أو فلسطين . وهذا محتمل جداً لأن الفرس كانوا دُحروا في حرب هرقل . . فلم يبق من خطر يهدد بلاد الشام بالهجوم عليها من الشمال الشرقي ، ويلاحظ من جهة أخرى فقدان جنود الروم في الباب الثاني ، وفي مرج راهط اجتمع مرتزقة الغسانيين فقط .

ويتراءى لنا أن خالداً في زحفه من سوى الى مرج راهط تعمد بألا يظهر أمام ضمير العتيقة وسار بعيداً عنها . ويتضح من كل ما ذكرناه انه لا بد لخالد أن يسير بعيداً عن المواقع الرومانية المذكورة خشية الاصطدام بها .

واذا بلغ خالد خبر اجتماع الغسانيين في مرج راهط قبل مسيره من سوى أو في طريقه اليها كان يقتضي أن يتغلب عليهم ليستطيع النفوذ الى الشام لأنه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لا يوجد أمامه طريق آخر دون لقائهم . ذكر ياقوت مرج راهط وقال انه موضع في الغوطة من دمشق في شرقيه بعد مرج عذراء اذا كنت في القصير طالباً لثنية العقاب تلقاء حمص فهو عن يمينك وقال عن مرجه هو أشهر المروج في الشعر . أما عذراء فموقعها ثابت في الخريطة وهي واقعة على طريق دمشق ـ ضمير ـ شمالي شرقي دمشق على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً ، غربي مفترق الطريق الممتد الى ضمير وخان ابي الشامات وطريق نبك ـ حمص .

ويبدو مما كتبه ابن عساكر ان مرج راهط هو مرج عذراء ، ويتبين مما كتبه ياقوت انه في شرقي عذراء . والمسافر من دمشق الى بغداد بالسيارات يرى هذا المرج الواسع على يمينه بعد عذراء . وكانت المروج والمراعي في شرقي دمشق خاصة بالغساسنة وفيها منازلهم وقراهم .

ولعل الروم حين حشدهم الجيوش لمقاتلة المسلمين في فلسطين لم يهتموا كثيراً بالناحية الشمالية والناحية الشرقية لدمشق . لأن الطريق التي تربط العراق بالشام والتي تمر بوادي الفرات وتجتاز بادية تدمر تلقى في وجهها معاقل وحصوناً ومرابط كما قلنا .. لهذا لم يتوقعوا هجوماً من هذه الناحية . واذا سارت قوات المسلمين عليها تصل أخبارهم الى حكام الروم في الشام فيتخذوا الحيطة لسد الطريق بوجه المسلمين . أما طريق البادية من الشرق فلا يمكن أن تسلكها قوة ذات شأن . ويتبين من رواية سيف بن عمر أن خالداً أغار على الغسانيين في مرج الصفر بينما الروايات الأخرى جميعها تشير الى قتال خالد للغسانيين في مرج راهط . أما موقع مرج الصفر فلم نتثبت منه بالضبط ، ذكره ياقوت وقال انه بين دمشق والجولان صحراء كبير . ويلوح لنا انه واقع الى جنوبي دمشق الى الغرب أو الى الشرق منها . لقد انتصر فيه العرب على الروم بعد معركة أجنادين في مسيرهم نحو دمشق وهو بلا شك مرعى للغسانيين ، وعلى ما يظهر انه مرعى كبير . ويبدو أن الغساسنة كانوا نازلين فيه مع عيالاتهم للرعي به

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولعل بعضهم كان في مرج راهط يرعى ماشيته ويراقب طريق الصحراء . فلما بلغهم خروج خالد الى سوى أخبروا الروم بذلك وطلب هؤلاء اليهم أن يمنعوا القادمين من الدخول الى أرض الشام . فأسرع من كان في مرج الصفر الى مرج راهط واجتمعوا فيه لحماية مواشيهم وصد المسلمين . يستنتج ذلك من انسحابهم الى مرج الصفر بعد هزيمتهم في مرج راهط .

وبعد فليس في الأخبار ما يشير الى وقت اغارة خالد على الغسانيين والى صورتها . وبما ان أسلوب خالد في أكثر حروبه المباغتة ، يتراءى لنا أنه باغت الغسانيين في مرعاهم وقت الصبح والاشارة الى ثنية العقاب في رواية الواقدي وروايات أخرى تخالف ما ذكرنا . ويؤخذ من رواية الواقدي أن خالداً وصل الى ثنية العقاب بعد اغارته على بني غسان . وهذا لا يتأتى لأن غوطة دمشق تبدأ بعد عذراء وليس فيها ثنية ، والثنية في اللغة طريق العقبة . والثنية التي صار اليها خالد وركز فيها رايته ينبغي أن تكون في نهاية الجبل الذي يمتد من الشرق الى الغرب في شمال ضمير ويطل منتهى الجبل المذكور على مرج عذراء وغوطة دمشق . وتمر بقربه الطريق بين دمشق وحمص ، بعد أن يتسلق الجبل ويتضح مما أورده ابن الأثير ان خالداً وصل ثنية العقاب بعد مصالحته لبني مشجعة في قصم ، ثم سار الى مرج راهط . ويستدل من ذلك انه بطريقه من حوارين الى دمشق مر بقصم . والطريق من النبك الى دمشق تمر بأراض جبلية وقبل أن تصل الى السهل الذي فيه مرج راهط تتسلق الجبل وتهبط منه الى السهل ، والثنية هذه في هذا الجبل كما بينا . واذا كان خالد قدم من سوى الى مرج راهط لمباغتة الغسانيين لماذا يعرج الى الجبال ويرفع رايته فوق الثنية ويكشف عن محله ؟ هل علم أنه لا يقدر على مباغتة الغسانيين اذا قدم من البادية ، لأن عيون عدوه كانت ترقبه ، لهذا عرج بعد ضمير الى الجبل وأغار على الغسانيين من الشمال بعد أن أخفى حركته في الأرض المتموجة ؟ أم أن حادثة الثنية وقعت بعد فتح دمشق ؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويظهر من رواية سيف أن خالداً أغار على الغسانيين في مرج الصفر وكان عليهم الحارث بن الأيهم ولم يشر سيف في روايته الى قتال وقع في مرج راهط على حين أجمع الرواة على وقوع هذا القتال . ويتضح من هذا أن راويه احتفظ بذكريات قتال مرج الصفر الرئيسي وأهمل قتال مرج راهط الثانوي . واذا كانت عيالات الغسانيين وماشيتهم في مرج الصفر ، كان ينبغي لهم بعد هزيمتهم في مرج راهط أن يسرعوا الى مرج الصفر للدفاع عن عيالاتهم وماشيتهم . وفي هذه الحالة لا بد ان خالداً لم يمهلهم ، بل طاردهم الى مرج الصفر ـ والمسافة بينهما على ما يبدو قصيرة ـ فهزمهم شر هزيمة ثم توجه الى بصرى . ليس في الروايات ما يشير الى عمل قام به خالد في طريقه الى بصرى . ويبدو من ذلك أنه بعد أن ظهر في أطراف عاد فأضاع أثره وظهر من جديد أمام بصرى .

أما الأخبار التي تروي اغارة خالد على قرى الغوطة ونزوله على أحد ابواب دمشق واعطائه عهداً لأسقفها وغير ذلك فيصعب تصديقها . ومع هذا فان مالمدينة دمشق من شهرة ومكانة قد بعثت أطماع خالد فجذبته الى المدينة .. لهذا جاز لنا أن نزعم ان رجاله أغاروا في طريقهم على بعض قرى الغوطة وان خالداً مرّ بباب دمشق مر الخاطف .

الخلاصة :

والذي يتلخص من بحثنا هذا ان خالداً بعد استلامه أمر ابي بكر بالشخوص الى الشام ، قرّر المسير اليها بطريق دومة الجندل ، فترك الحيرة بعد منتصف شهر آذار سنة ٦٢٤ فبلغ دومة الجندل وبدلاً من أن يسير على طريق وادي السر تقدم من الشمال محاذياً للوادي حتى وصل قراقر ومنها اعتزم اجتياز المفازة بين قراقر وسوى ، ثم تقدم رأساً الى مرج راهط فهزم الغسانيين في عيد فصحهم في ٢٤ نيسان سنة ٦٢٤ ثم تقدم مسرعاً الى بصرى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبهذه المناسبة ننشر فيما يلي ما كتبه الجنرال جلوب قائد الجيش العربي في الأردن في كتابه «قصة الكتيبة العربية» :

«وبينما كانت الجيوش العربية تقاتل الروم في السهول الفارسية (العراق) كان خالد بن الوليد يغزو مسالح الامبراطورية الفارسية . ولما ورد اليه أمر الخليفة يلح عليه بالكف عن حرب فارس ويطلب اليه الاسراع لنجدة جيش المسلمين امام دمشق ، وكان خالد قد فتح مدينتين من مدن العراق . وكان خالد على بعد خمسمائة ميل عن زملائه في الشام ، تفرقهم بادية الشام التي لم يقطعها جيش في الحرب قبلاً ، ما عدا مرة واحدة (يقصد بها حركة الكتيبة العربية من شرقي الأردن الى العراق في حوادث سنة ١٩٤١) ترك خالد العراق حالاً وسار عبر الصحراء الى واحة دومة الجندل (تدعى الآن الجوف) ومنها فتح وادي سرحان بوجهه الطريق الى الشام ، والوادي بطن طويل حافل بالآبار طالما قطعته القوافل . وكانت الحصون الرومية تسيطر على منتهاه الشمالي . وبعد ان استقى خالد الماء من قراقر دلف الى الشرق وتوغل في البادية بعيداً عن أنظار حاميات الروم في الشام . وبينما كان جيش الروم يقاتل العرب في السهول الواقعة الى جنوبي دمشق ظهر خالد من البادية بغتةً وراء ظهرهم . وكانت هذه الحركة السريعة فوق طاقة جنود الروم المجهزين بالسلاح الثقيل . لهذا بعث الروم مناصريهم العرب ، الأمراء الغسانيين لطرد خالد من خطوط مواصلاتهم ، ولكن بني غسان منوا بهزيمة منكرة شرقي دمشق على بعد خمسين ميلاً .

دلف خالد البادية وأضاع أثره للمرة الثانية وبعد أن التف وراء جبل الدروز ، انضم الى جيش المسلمين في السهول الممتدة جنوبي دمشق[1]» .

بغداد : طه الهاشمي

(١) The Story of Arab Legion (ص ٢٥) وما بعدها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net